# الفصل الثانى

## التفسير الجغرافى لظاهرة الصعلكة

### ١

**أهمية العامل الجغرافى :**

حين نقف عند الجانب الجغرافى من ظاهرة الصعلكة ، فإنما نقف عند أول عامل من العوامل التى عملت فى نشأتها وتوجيهها وطبعها بطابع خاص . ففى كل مشكلة من مشكلات التاريخ يعمل عاملان أساسيان : الإنسان ، والبيئة الجغرافية ، وترجع أهمية العامل الجغرافى إلى أنه يعمل فى قوة وإلحاح ، فهو قوة ثابتة لا تكف عن العمل[١] ، والإنسان — على حد تعبير بعض الباحثين — غلة من غلات سطح الأرض[٢] .

والظاهرة التى نحن بصدد دراستها وتفسيرها اتخذت من البادية العربية مسرحاً لها ، وكان ارتباطها بهذا « المسرح الجغرافى » وثيقاً ، تأثرت به فى نشأتها ، وتكيفت معه فى اتجاهاتها ، ولعل فى دراسة هذا « المسرح الجغرافى » أولا ما يعيننا على فهم الدور الذى قام به أبطال قصتنا « الصعاليك » .

### ٢

**جزيرة العرب :**

يميز الدارسون لتاريخ غربىّ آسيا بين حملة الحضارة سكان السهول والتلال المنخفضة ، وبين الشعوب المتأخرة سكان الجبال والصحارى[٣] ، ويلاحظون أن

---

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 2.

(٢) Ibid., p. I.

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 3.

المدنية فى هذا الجزء من العالم هى تلك التى تعرف باسم «حضارة وديان الأنهار» ، القائمة على الزراعة ، التى تصطنع وسائل صناعية للرى ، تغذيها أنهار ذات فيضان موسمى ، وهذه الحضارة تقف عند المستوى الذى يمكن رفع الماء إليه . ومن هنا يصبح هذا المستوى الحد الفاصل بين الأقاليم المستقرة ومناطق القبائل الرعوية[١] .

وتمثل البادية العربية «تلك الرقعة من الجنوب الغربى لآسيا التى لم تدخل فى نطاق حضارة وديان الأنهار ، والتى أبطأ سكانها — نتيجة لذلك — فى مدارج التقدم الحضارى»[٢] ، شأنهم فى ذلك شأن سكان الصحارى «أطفال العالم الخالدين»[٣] ، أولئك الذين لا تتغير حياتهم مع تغير الزمن .

والمنظر العام لهذا «المسرح الجغرافى» الذى دارت عليه قصة صعاليك العرب منظر «نجد تحيط به صحراء : رملية فى الجنوب والغرب والشرق ، وحجرية فى الشمال . وتطوق هذا النطاق الخارجى سلسلةٌ من جبال ، أكثرها منخفض قاحل ، ولكنها فى اليمن وعُمان ذات ارتفاع كبير واتساع وخصب ، ومن وراء هذه الجبال حافة ساحلية ضيقة يحدها البحر»[٤] . وينحدر هذا المسرح الجغرافى «من الغرب إلى الشرق ، إذ أن معظم الجبال فى الغرب ، وإن تكن طائفة من المرتفعات فى الجنوب الشرقى ، فى عُمان ، تعد شذوذاً لهذه القاعدة»[٥] .

ومن أظهر ما عرفت به بلاد العرب منذ القدم الجدب والحر ، إذ «تقع الجزيرة العربية كلها تقريباً داخل نطاق الحرارة القصوى الذى يطوّق العالم فى شهر يوليه»[٦] . ويرد الجغرافيون هذا إلى أن قسماً كبيراً منها يقع فى منطقة

---

(١) Ibid., pp. 3-4.

(٢) Ibid., p. 5.

(٣) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 509.

(٤) Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, p. 19.

(٥) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 6.

(٦) Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, p. 20.

الرهو المدارية ذات الضغط العالى والمطر القليل ، والقسم الآخر يقع فى حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة ، التى تزداد حرارتها كلما تقدمت إلى الجنوب . « ويزداد هذا الحر قسوة فوق المنطقة الساحلية بسبب الرطوبة التى تنشأ عن كمية البخار الهائلة المتصاعدة من مستنقعات المياه المغلقة»[١] أما فوق المرتفعات فإن درجة الحرارة تنخفض حتى ليوجد الجليد أحياناً فى ليالى الصيف فوق الجبال جنوبى مكة[٢] .

ومن عوامل الجدب قلة المطر ، وذلك لأن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التى تتعرض لها الجزيرة العربية صيفاً تصل إليها بعد أن تكون قد أسقطت أمطارها الغزيرة على الحبشة . ولهذا فإن أمطارها فى بلاد العرب لا تكاد تذكر بجانب ما يسقط منها فى الحبشة .

وإلى جانب هذه القلة فى كمية المطر نلاحظ أنه يسقط فى فترات متباعدة جداً ، وغير منتظمة ، حتى إن بعض أجزاء الجزيرة العربية لا يسقط المطر فيها إلا كل ثلاث سنوات أو أربع .

وترتبط حياة أهل الصحراء بالمطر ارتباطاً وثيقاً حتى لقد سموه غيثاً وحياً ، ويصفه الله تعالى بأنه « رحمته »[٣] ، ومن صلوات الإسلام « صلاة الاستسقاء » التى يقيمها البدو حين تُخْلِف النجوم ، وتجمد الرياح ، ويحتبس المطر ، وتتوقف حياة البادية على تلك القطرات من الغيث ترسلها السماء إلى الأرض ، فتحيا بها بعد موتها . وليس من شك فى أن فرحة البادية بالمطر عظيمة ، حتى ليصف الله تعالى تأثيره فى نفوس أهلها بأنه « إذا أصابَ به مَن يشاء من عباده إذا هم يَسْتَبشرون»[٤] ، وحتى ليقف الشعراء من السحاب والبرق والمطر تلك الوقفات الطويلة الجميلة التى سجلوها فى شعرهم ، فيخلع امرؤ القيس

---

(١) Ibid., p. 20.

(٢) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 8.

(٣) النحل / ٦٣ ، والروم / ٤٦ – ٥٠ .

(٤) الروم / ٤٨ .

فرحته بالمطر على ما حوله من مظاهر الطبيعة فيجعل مُكَاكِيَّ الجواء غِبَّ المطر فى نشوة غامرة كأنما « سقين سُلافاً من رحيق مفلفل » ، ويدعو الباكون لموتاهم بأن يسقى الغيث قبورهم ، ويسأل المحبون لديار أحبابهم أن يسقيها « صَوْبُ الربيع وديمةٌ تهمى » .

ومن أشد ما تقاسيه البادية العربية احتباس المطر ، فمتى احتبس أصبحت غير صالحة للسكنى ، فقد حل الجفاف « وما يتبعه من نفوق القطعان ، وهلاك الرعاء »[١] ، وأجدب البدو وضاقت أمامهم سبل الحياة ، ولم يعد أمامهم إلا أن يرحلوا عن مواطنهم ينتجعون مواطن الكلأ والماء ، حتى لقد يدفعهم الجدب إلى مغادرة البادية العربية كلها إلى تلال اليمن والشام أو إلى سهول النيل والفراتين[٢] . وفى الأخبار القديمة أن بطوناً من خزاعة « خرجوا جالين إلى مصر والشام لأنهم أجدبوا »[٣] ، وأن بنى شيبان أصابتهم « سنةٌ ذهبت بالأموال ، فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة ، فقال لهم : كونوا قريباً من الملك يصبكن من خيره حتى أرجع إليكن ، وآلى أليّة لا يرجع حتى يكسبهن خيراً أو يموت »[٤] ، وقد يرفض بعض هؤلاء المهاجرين العودة إلى ديارهم بعد سقوط المطر وعودة الحياة إلى البادية ، ضيقاً بهذه البيئة المتقلبة ، ورغبة فى الاستقرار والحياة المطمئنة ، فنى أخبار تلك البطون من خزاعة أنهم مضوا فى هجرتهم ، « حتى إذا كانوا ببعض الطريق رأوا البوارقَ خلفهم ، وأدركهم من ذكر لهم كثرة الغيث والمطر وغزارته » ، فرجع فريق منهم إلى أوطانهم واستمرت قلة فى هجرتها[٥] . وفى رأى بعض الباحثين أن السبب الأول فى هجرة القبائل اليمنية إلى الشمال يرجع إلى تغير مناخى[٦] ، وأن

---

(١) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 105.

(٢) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 489.

(٣) الأغانى ١٣ / ٦ ( بولاق ) .

(٤) الأغانى ١٦ / ٥٠ .

(٥) انظر القصة فى الأغانى ١٣/٥ — ٧ ( بولاق )

(٦) سليمان حزين فى مقالته الفرنسية المنشورة بمجلة كلية الآداب ( المجلد الثالث =

تدهور الحضارات القديمة ، وتشتت القبائل ، وانبعاث الهجرات من تلك الجهات ، فى العهد السابق للإسلام مباشرة ، مرتبط على ما يظهر ارتباطاً وثيقاً بتغيرات المناخ ، وذبذباته ، وعودته إلى الجفاف النسبى بعد الحالة الممطرة[١] .

ويلاحظ الدارسون أن هذه القدرة على هجرة الجماعات الرعوية ، إنسانها وحيوانها ، إلى مراع جديدة ميزة هامة تمتاز بها هذه الجماعات ، ويلاحظون أن هذا يتم فى سهولة ويسر ، ما لم تكن فى الأرض الجديدة جماعة أكبر عدداً ، وأشد بأساً من الجماعة المهاجرة[٢]. ويرد بعضهم هذه السهولة وهذا اليسر إلى أن كمية المطر القليلة التى تسقط فى الصحراء لا تساعد على نمو الغابات التى تقوم حاجزاً فى طريق الهجرات[٣]

ومما يزيد من قسوة الحياة فى أيام الجفاف اقترانها فى الغالب بريح السموم ، تلك الريح المهلكة[٤] التى تشوى مها الصحراء كما يقول الشاعر القديم[٥] .

ويرجع السبب الأساسى فى هذه الحالة القاسية التى تعانيها الصحراء إلى قلة الماء « فليس فى البادية العربية أنهار دائمة الجريان ، وإنما هى أودية تمتلئ بالماء فى مواسم المطر ، ويغيض ماؤها بعد ذلك»[٦] ، وموسم المطر فى البادية

---

= الجزء الأول ، مايو ١٩٣٥ ) تحت عنوان :

Changement historique du climat et du paysage de l'Arabie du Sud", p. 23.

( ١ ) الباحث نفسه فى تقريره عن بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت ١٩٣٦ المنشور بالعربية بمجلة كلية الآداب ( المجلد الرابع ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٣٦ ) ص ١٩٧ .

( ٢ ) ميرز فى مقالته عن « المناخ والجغرافيا وأثرهما فى التاريخ » المنشورة فى مجموعة « تاريخ العالم » لسير جون هامرتن ، الفصل التاسع / ٣٥٧ .

( ٣ ) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 483.

( ٤ ) انظر القصة الواردة فى الأغانى ١١/٤٢ ( دار الكتب ) .

( ٥ ) البعيث الحنفى فى حماسة أبى تمام بشرح التبريزى ٤/١٥٠ . . « وهاجرة يشوى مهاها سمومها » .

( ٦ ) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 6.

العربية قصير [١] ، ومن هنا كان جفاف هذه الأودية طويلا « فهى فى العادة تظل جافة تسعة أشهر أو عشرة فى العام» [٢] .

ولكن الحال فى اليمن تختلف ، وذلك لأن « الغدران الساحلية تكثر فيها فى أثناء فصل الأمطار ، وقد تمتلئ فى بعض الأحيان فجأة إلى درجة الفيضان ، فتندفع جارفة أمامها كل شىء ، وتسمى فى هذه الحالة سيولا» [٣] ، ويحدثنا امرؤالقيس فى معلقته عن سيل من هذه السيول اقتلع الأشجار الضخمة ، وأنزل العصم من رؤوس الجبال ، وجرف النخل والأجم ، وأغرق السباع حتى بدت فيه كأنها « أنابيش عُنْصُل » ، بل إنه أحاط ببعض الجبال حتى بدت قممها كأنها « من السيل والغُثاء فلكة مغزل » وفى أغلب الظن أن هذا الوصف ليست فيه مبالغة كبيرة ، وأنه ليس خيال شاعر ، فأحد هذه السيول هو الذى جرف أمامه سد مأرب المشهور ، كما يحدثنا القرآن الكريم [٤] ، ولم يكن هذا السد بالبناء الهين الشأن ، وإنما كان سداً أصم طوله من الشرق إلى الغرب نحو ثمانمائة ذراع ، وارتفاعه بضعة عشر ذراعاً ، وعرضه مائة وخمسون ذراعاً [٥] .

وقد وقف سكان الجزيرة العربية من هذه المياه التى تتدفق بها الصحراء فى مواسم المطر موقفين ، هما موقفا الحضارة والبداوة : أما أهل اليمن فقد استطاعوا استغلال هذه المياه المتدفقة ، فأقاموا السدود فى عرض الأودية لحجز السيول ، والانتفاع بمياهها فى إحياء موات الأرض ، ويصف القرآن الكريم مسكن سبأ بأنه « جنتان عن يمين وشمال» [٦] ، وقد استغل اليمنيون هذه الظاهرة الطبيعية استغلالا واسعاً « فلم يدعوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء إلا حجزوا سيله بسد ،

---

(١) Lammens; Le Berceau de l'Isla m, Vol. I, p. 158.

(٢) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 22.

(٣) Ibid,. p. 21.

(٤) سبأ / ١٦ .

(٥) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ١/١٥٦ .

(٦) سبأ / ١٥ .

فتكاثرت الأسداد بتكاثر الأودية حتى تجاوزت المئات»[١] ، ويذكر الهَمْدانى أن فى أحد مخاليف اليمن ثمانين سداً أشار إليها بعض شعرائهم[٢] .

أما أهل البادية فى الحجاز ونجد فقد تركوا السماء تمطر فتحيى لهم ما تحيى من الأرض ، فإذا زادت مياهها عن الحاجة ذهبت بها رمال الصحراء ، حتى إذا ما انقضى فصل المطر عادت الطبيعة لجدبها ، وعادت الحياة لجفافها ، وعاد القوم لظمئهم وقحطهم . ويبدو أن السبب فى هذا يرجع إلى طبيعة الظاهرة الجغرافية نفسها . فإن تلك السيول التى عرفتها أودية اليمن لم تعرفها البادية العربية فى الحجاز ونجد — بحكم ظروفها الجغرافية — إلا نادراً ، هذا إلى جانب أن أكثر أهل الحجاز ونجد كانوا بدواً لم يصلوا من الحضارة إلى درجة التحكم فى هذه السيول والانتفاع بها .

ومع ذلك فليست الجزيرة العربية كلها جدباً ، وإنما هناك مناطق خصبة ، وقد رأينا خصب اليمن التى يسميها الهمدانى « اليمن الخضراء » لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها[٣] .

ويذكر الجغرافيون من هذه المناطق الخصبة هضبة نجد العالية[٤] ، التى ترتفع عن سطح البحر زهاء أربعة آلاف قدم ، والتى تكسو أغلبها مراع خصبة ، وتنتشر فيها الأشجار ، ومن هنا اشتهرت بنتاج غنمها وإبلها وخيلها[٥] ، ويرجع السبب فى هذا الخصب إلى وفرة المياه التى « توجد فى كل مكان ، فى آبار لا يتجاوز عمقها خمسة عشر قدماً وقد يقل عنها »[٦] ، كما أن قممها التى يتجاوز ارتفاعها خمسة آلاف قدم تساعد على تجميع المياه[٧] » .

---

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ١/١٤١ .

(٢) صفة جزيرة العرب ١/١٠١ .

(٣) المصدر السابق / ٥١ .

(٤) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 501.

(٥) Zwemer;Arabia, The Cradle of Islam, pp. 147-148.

(٦) Ibid., p. 147.

(٧) Semple: Influences of Geographic Environment, p. 501.

ولا تخلو سلسلة جبال السَّراة التى تمتد على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر « ما بين أقصى اليمن والشام »[١] من مناطق خصبة ، هى بعض تلك الأودية التى تقطع السراة إلى تهامة حتى تنتهى إلى البحر[٢] ، حتى لنجد أن اسم واحد منها « وادى الجنات » وهو — كما يدل عليه اسمه — واد شديد الخصب[٣] ، وهناك من هذه الأودية الشديدة الخصب وادى نخلة[٤] ، ووادى نِحْيان[٥] ، ويصف الهمدانى سراة الحِجْر بالخصب الشديد[٦] .

ووفقاً لقانون جغرافى تعرفه البادية يجعل من مناطق الخصب والماء مناطق استقرار للقبائل ، نزلت القبائل فى هذه الأودية الخصبة ، وأقاموا القرى ، ففى وادى باحان « القرى والزرع »[٧] ، وبالقرب من وادى الجنات قرية النُّبَيْرة وهى « كثيرة الأعناب والفواكه والغيول الحاملة[٨] » .

حتى الحجاز — ذلك الإقليم الجبلى الرملى — يشتمل على بقاع خصبة ، هى تلك الكثبان والربى الخصبة التى تتخلله ، والتى تخرج سفوحها حبًّا ، وشيئاً من الفاكهة ، وكلأً للقطعان ، وينابيع من ماء دائم[٩] ، ووفقاً لقانون البادية الجغرافى السابق اتخذت القبائل من هذه الكثبان والربى الخصبة منازل لها ، ومن حولها قامت القرى[١٠] ، وحسبنا أن نذكر من هذه القرى الطائف « جنة مكة »[١١] « ومصيف المكيين المترفين »[١٢] حينما يشتد بهم صيف مكة الذى

---

(١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ١/٦٧ .
(٢) انظر هذه الأودية فى المصدر السابق / ٧١ — ٨٤ .
(٣) المصدر نفسه / ٧٦ .
(٤) المصدر نفسه / ٧٥ .
(٥) المصدر نفسه / ١٢٢ .
(٦) المصدر نفسه / ١٢٣ .
(٧) المصدر نفسه / ١٢١ .
(٨) المصدر نفسه / ٧٧ .
(٩) Sédillot; Histoire Générale des Arabes, Tome I, p. 12.
(١٠) Ibid., p. 12.
(١١) Ibid., p. 12.
(١٢) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

لا يطاق ، وذلك لأنها لا تبعد عنها أكثر من سبعين ميلا[١] ، ولم تكن الطائف مصيف أهل مكة وحدهم ، وإنما كانت مصيفاً لغيرهم من القبائل ، حتى البعيدة عنها ، فقد كانت بعض القبائل تقبل إليها من نجد، كما كان يفعل بنو عامر بن صَعْصَعة الذين كانوا يتصيفونها « لطيبها وثمارها ، ويتشتون بلادهم من أرض نجد »[٢] ، وتقوم الطائف قريباً من ربوة من تلك الربى الخصبة[٣] فوق تلال غزوان[٤] ، وتلتف بها الجنات والكروم[٥] ، وشهرة كروم الطائف وأعنابها شهرة قديمة عرفت بها[٦] . ومن مصادر خصب الطائف الأساسية وفرة المياه فيها « فالأمطار الموسمية تدوم بها من أربعة أسابيع إلى ستة ، وعندما تنقطع تكثر الآبار التى تصلح لسقى حدائقها »[٧] ، هذا إلى طبيعة جوها الذى يساعد على نمو كل الفاكهة التى يعرفها جنوبى أوربا[٨] ، فالحرارة فى أوقات الظهيرة ليست ثقيلة ، والليالى ذوات جو منعش[٩].

ومن مناطق الخصب فى الجزيرة العربية أيضاً يثرب والوديان التى حولها ، فقد اشتهرت الوديان الواقعة فى هذه المنطقة البركانية ، منطقة الحَرّات ، بخصبها الشديد بالنسبة إلى ما حولها[١٠]. ومرد خصب هذه المنطقة إلى أمرين : طبيعة الأرض ، فإن تفكك الصخور البركانية فيها يحفظ على الأرض خصبها ، ثم وفرة المياه ، فهناك وادى إضَم ، والآبار ، والصخور البركانية التى تجمّع

---

(١) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45.

(٢) البكرى : معجم ما استعجم ١/٧٧ .

(٣) Sédillot; Hist. Générale des Arabes, Tome I., p. 12.

(٤) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

(٥) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45.

(٦) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368, & Lammens; Le Berceau de l'Islam, vol. I, p. 90.

(٧) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45.

(٨) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

(٩) Doughty; Travels in Arabia Deserta, Vol. II, p. 525.

(١٠) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

المياه ، وهى كلها مصادر غنية بمياهها [١] .

وتشتهر هذه المنطقة بصفة خاصة منذ أقدم العصور بزراعة النخل [٢] ، ويطلق عليها عروة بن الورد فى شعره « منبت النخل [٣] » ، وفى شعر حسان ابن ثابت وصف جميل لهذه البيئة الخصبة [٤] .

وفى شمالى يثرب تقع حرّة خيبر ، أكبر الحرات فى الجزيرة العربية [٥] ، التى تدين بوجودها إلى غزارة مياهها ، وإلى تحلل صخورها البركانية ، والتى تشتهر بخصبها وكثرة مزارعها ونخلها [٦] .

وفى جنوبى يثرب وادى العقيق ذو العيون والنخيل [٧] بمصايفه ومتنزهاته المحجّبة فى خضرته [٨] .

## ٣

### التضاد الجغرافى وأثره فى نشأة حركة الصعاليك :

هذه هى الصورة العامة « للمسرح الجغرافى » الذى دارت عليه قصة صعاليك العرب ، كما نراها من الزوايا التى تفسر لنا مشاهدها ، وهى صورة خلاصة ما يقال فيها أنها تجمع لوناً من « التضاد الجغرافى » يلفت النظر ، ويجدر بنا أن نقف عنده لأن فيه مفتاحاً من مفاتيح هذه القصة ، ولأنه يكشف لنا جانباً من الستار عنها .

والخطوط الأساسية لهذه الصورة هى أنها منطقة صحراوية جبلية ، عرفت

---

(١) Dermenghem; The life of Mahomet, pp. 11, 12.

(٢) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

(٣) ديوانه / ١٠٦ .

(٤) انظر ديوانه / ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٥) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 23.

(٦) ياقوت : معجم البلدان ٣/٤٩٥ .

(٧) المصدر السابق ٦/١٩٩ .

(٨) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 98.

الأغوار المنخفضة ذات الحرارة الشديدة ، والجبال العالية ذات القمم الثلجية ، وعرفت بينهما مناطق رملية مترامية الأطراف كثيرة المجاهل والمخاوف . ثم هى منطقة عرفت الجدب الذى تتعذر معه الحياة ، حتى يضطر أهلها إلى الهجرة ، والخصب الذى يغرى الناس على الاستقرار وإقامة القرى ، وعرفت المطر يحتبس حتى تصبح البادية غير صالحة للسكن ، والسيول تندفق حتى تجرف أمامها كل شى ، وعرفت البرد الذى يعقد ذنب الكلب ، والحر الذى يذيب دماغ الضب ، ويطبخ الإبل ويشويها .

وكان لهذا « التضاد الجغرافى » أثره فى نفوس سكان الجزيرة العربية ، فقد أوجد فى شخصياتهم لوناً من « التضاد النفسى » اصطبغت عناصره بما فى البيئة الجغرافية من لونى المبالغة وعدم الاستقرار . وظهر هذان اللونان الصارخان فى نفوس البدو فى كلا الجانبين الأخلاقيين : جانب الخير وجانب الشر ، فالبدوى لا يعرف القصد لا فى الخير ولا فى الشر ، مبالغ فى عداوته ، مبالغ فى محبته ، لا يتورع عن الغدر ، ولكنه إذا عاهد على الوفاء بذل حياته فى سبيل عهده ، يغزو وينهب حتى يكاد يفقد حياته ، ثم يوزع ما يغنمه على سواه .

والبدوى — إلى جانب هذا — يأنف من حياة الاستقرار ، ويرى الدارسون أن « كل جانب من جوانب الحياة البشرية فى الصحارى يحمل طابع الحركة »[١] ، وأن « القاعدة التى تقوم عليها حياة البدو قاعدة متقلقلة »[٢] . ومن هنا احتقر البدو الزراعة[٣] ، ويذكر ابن خلدون أنها « من معاش المتضعين وأهل العافية من البدو »[٤] ، واحتقروا الصناعة[٥] ، وعند ابن خلدون أن « العرب أبعد

---

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, pp. 487, 488.

(٢) Ibid., p. 490

(٣) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375; & Semple; Influences of Geographic Environment, p. 500.

(٤) انظر الفصل الثامن من الباب الخامس من الكتاب الأول من المقدمة / ٣٩٤ .

(٥) The Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375.

الناس عن الصنائع »[١] . وآمنوا بأن الرعى والتجارة والصيد والنهب هى وحدها الأعمال التى تليق بالرجال[٢] ، وهى كلها أعمال بعيدة عن الاستقرار .

ونستطيع بعد هذه النظرة العامة أن نركز الضوء على أبطال قصتنا ، صعاليك العرب ، حيث يتحركون على هذا المسرح الجغرافى الذى رسمنا خطوطه الأساسية ، لنتبين كيف تأثرت حركتهم به ، وكيف تكيفت معه .

وأول ما نلاحظه أن هذه البيئة الجغرافية كانت عاملا أساسيًّا فى وجود الفقر من ناحية ، وفى الإحساس به من ناحية أخرى .

فهذه البيئة الصحراوية ذات المناخ الحاد ، والموارد الطبيعية المحدودة ، التى تعتمد على المطر تجود به السماء فى فترات متباعدة غير منتظمة ، والتى يسيطر عليها الجفاف والجدب أكثر شهور السنة ، والتى تقع تحت وطأة الطبيعة مباشرة ، فلا يجد أهلها إذا ما اشتدت عليهم إلا الهجرة ، عامل فعال فى وجود الفقر .

ويلاحظ الدارسون أن «البدوى والعوز صاحبان ألف كل منهما صاحبه»[٣] ، وأن « القفر مكان الشظف والسَّغَب» . وأن « نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن » التى اختص بها أهل البادية أمور « حملتهم عليها الضرورة التى عينت لهم تلك القسمة »[٤] ، وأن الظروف الاجتماعية التى تسود البيئة الصحراوية توصد أبواب الرزق فى وجوه أبنائها ، وتجعل من العمل فى سبيله مهمة شاقة غير مثمرة ، فهى حياة تعرف الكدح الكثير ، ولكنها تضيع ثمرته[٥] . « فهذه السهول القاحلة تحول دون نمو الثروة الإنتاجية ، فيما عدا قطعان الغنم والماشية ، بل إنها تحد من نمو هذه القطعان نفسها ، نظراً لقلة ما تقدمه لها مراعيها الهزيلة المتفرقة من غذاء ، وهو غذاء لا يتجاوز تلك

---

(١) انظر الفصل الحادى والعشرين من الباب الخامس من الكتاب الأول من المقدمة / ٤٠٤ .

(٢) The Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375

(٣) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 490

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، الفصل التاسع من الباب الثانى من الكتاب الأول / ١٢٩ .

(٥) Semple; Influences of Geographic Environment, p. I.

الحشائش والأعشاب وما يشبهها من أنواع النبات التى تحتمل جفاف صيف طويل ، والتى تحتاج إلى وقت قصير لنموها »[١] . وهكذا انحصرت حياة البدو دون تدخل منهم فى الرعى ، ما دامت الموارد الطبيعية التى لديهم قد حصرت ثروتهم فى هذه القطعان . ومع ذلك فإن هذه الثروة النسبية التى يملكها البدوى ليست بالثروة المضمونة البقاء فإن « وباء ينتشر بين قطعانه ، أو جدباً فى المرعى ، أو جفافاً فى الآبار ، يضعه وجهاً لوجه أمام المجاعة ، ويدفعه دفعاً إلى السرقة والنهب »[٢] .

وكما كانت هذه البيئة الطبيعية عاملا فى وجود الفقر كانت عاملا فى إحساس الفقراء إحساساً قويًّا به ، حين أوجدت فى جوار المناطق المجدبة مناطق خصبة ، مما أشعر أبناء المناطق المجدبة بأن الحياة لم تحرم الناس جميعاً كما حرمتهم ، وإنما أغدقت على طائفة من الناس ماءً لا ينضب ، وكلأً لا يجف ، وثروة لا تهددها الطبيعة فى كل لحظة بالفناء ، بقدر ما سلطت عليهم من سياط الحرمان جفافاً وجدباً وفقراً . والنتيجة النفسية لهذا — كما يقرر علماء النفس — نشأة « عقدة الفقر » فى نفوسهم . ولو أن الطبيعة سوت بين أهل البادية جميعاً فى الفقر لما أحس أحد هذه الفوارق الطبقية التى تثير فى نفوس الطبقة الفقيرة الثورة والتمرد ، وهذا معنى قولنا إن ظاهرة « التضاد الجغرافى » تحمل مفتاحاً من مفاتيح قصة صعاليك العرب .

ثم إن هذه البيئة الجغرافية خلقت من أبنائها رجالا أقوياء . فالصحراء — كما يقرر الدارسون — تربى فى نفوس أبنائها « صفات الشجاعة والجرأة ، والكبرياء العنيدة ، كبرياء الرجال الأحرار »[٣] ، «وحياة الصحراء بما فيها من مخاطرة ، واعتماد على النفس ، تجعل من العربى أشجع الجنس البشرى»[٤] ،

---

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 483.

(٢) Ibid., p. 490.

(٣) Ibid., p. 510.

(٤) Ibid., p. 493.

« وأهل البدو » — كما يذكر ابن خلدون[١] — « أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر ... قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية» ، ومرد هذا عنده إلى حياتهم التى يحيونها فى البيداء ، والإنسان « ابن عوائده ومألوفه» .

وقد رأينا أن هؤلاء الرجال الأقوياء من أبناء الصحراء يرفضون الاعتماد فى حياتهم على الزراعة أو الصناعة ، ولا يجدون سبيلا للعيش إلا فى الرعى أو التجارة أو الصيد أو النهب ، ورأينا فى الفصل السابق كيف كان صعاليك العرب يرفضون الرعى ، لأنهم يرون فيه عملا من أعمال العبيد الأذلاء ، أما التجارة فلم يكن للصعاليك مجال فيها ، إذ هى تعتمد قبل كل شىء على رأس مال يستغل فيها ، وأنّى لهؤلاء الفقراء رأس المال الذى يصلح للاستغلال التجارى ؟ وإذن لم يبق أمامهم سوى الصيد والنهب ، وقد اعتمدوا عليهما جميعاً ، وهما — كما نرى — سبيلان للعيش متشابهان ، أو هما فرعان لأصل واحد هو الاغتصاب.

هكذا خلقت الصحراء هؤلاء الرجال الأقوياء ، ووضعتهم فى بيئتها الفقيرة ، وضيقت عليهم موارد العيش ، وأوجدت فى جوارهم بيئات خصبة تفيض بالمال والثراء ، فلم يكن هناك مفر من النتيجة التى تنتج من تفاعل هذه العوامل معاً ، وهى « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وانتشر صعاليك العرب فى البادية يقطعون طرقها ، وينهبون ويسلبون ، ويثيرون فى أرجائها الرعب والفزع . ويغيرون على المناطق الخصبة ، ويهددون أهلها فى ثروتهم وحياتهم ، ويعترضون القوافل التجارية ، حتى لتضطر إلى أن تخرج مسلحة فى حرس شديد ، أو تحتاج إلى من يجيزها على المناطق الخطرة[٢] ، وحتى لتتنكب القبائل العربية فى اختيار منازلها مقانب العرب فى سراياهم[٣] ، ويحذر بعضهم بعضاً من أن يتلعّب به صعاليك العرب ، وتتخطفه ذئابها ، وتأكل ماله[٤] .

---

(١) المقدمة الفصل الخامس من الباب الثانى من الكتاب الأول / ١٢٥ .

(٢) انظر قصة البراض الكنانى وعروة الرحال مع لطيمة النعمان فى الأغانى ١٩/٧٥ ، وانظر فى قصص الخفارة المحبر لابن حبيب / ٢٦٣–٢٦٧ .

(٣) البكرى : معجم ما استعجم ١/٥٣ .

(٤) الأغانى ٢/١٢٦ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١/١٨٥ – ١٨٦ .

## ٤

### التضاد الجغرافى وأثره فى توجيه حركات الصعاليك :

وتتدخل ظاهرة « التضاد الجغرافى » مرة أخرى لترسم لهؤلاء الصعاليك المغامرين طريقهم ، وتحدد لهم مناطق نشاطهم ، فتكون هى تلك المناطق الخصبة التى تعرفها الجزيرة العربية .

ويلاحظ الدارسون أن هذا الصراع هو الصلة الجغرافية الطبيعية بين الصحارى المقفرة والوديان الخصبة ، بين أرض الفقر وأرض الثراء[١] ، فمنذ أقدم العصور ، وهذا النطاق الصحراوى الذى يطوق الدنيا القديمة ، يرسل على الوديان الخصبة المجاورة موجات متلاحقة من القبائل المغيرة الباحثة عن الخصب فى تلك الأرض الطيبة ، عندما تقل لديها موارد الرزق ، ويحرق جفافُ الصيف المراعى ، ويجفّف موارد المياه[٢] . وليس من الممكن أن يعيش بدو الصحارى وحضر السهول الزراعية فى أى مكان متجاورين فى سلام وإنما هى الغارات والاعتداءات والثارات[٣] ، حتى ليعد هذا النطاق الصحراوى منطقة تقدّم لكل أعداء النظام الحماية والأرض الصالحة للتجنيد[٤] .

هكذا اتخذ صعاليك العرب من مناطق الخصب فى الجزيرة العربية أهدافاً لهم يتجهون إليها ، ومناطق نشاط يعملون فيها ، حتى إننا لو رسمنا مصوراً جغرافيًّا لحركات الصعاليك فى الجزيرة العربية ، ووضعنا عليه السهام التى تبين الاتجاهات — كما يفعل أصحاب الخطط الحربية — لوجدنا هذه السهام تخرج من مناطق الجدب ، وتتجه رءوسها إلى مناطق الخصب . ويذكر تأبط شرًّا أن أهدافه هى تلك المزارع الخصبة حيث الماء والزرع والماشية :

---

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 487.

(٢) Ibid., p. 7.

(٣) Ibid., p. 492.

(٤) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 3.

فيوماً على أهل المواشى ، وتارة لأهل رَكِيب ذى ثَمِيل وسنبل[١]

ويصرح أبو خراش بمثل هذه الأهداف :

لستُ لمرةَ إنْ لم أُوفِ مَرْقَبَةً يبدولىَ الحرْفُ منها والمقاضيبُ[٢]

وفى أخبار السليك أنه خرج فى بعض غزواته يتتبع الأرياف[٣] .

وقد لاحظنا أن أهم مناطق الخصب فى الجزيرة العربية هى اليمن ، ونجد ، وبعض مناطق السراة ، ويثرب والوديان المحيطة بها . ونستطيع أن نقول — ونحن مطمئنون — إن كل هذه المناطق ، بدون استثناء ، تعرضت لغزوات الصعاليك .

وقد توزع نشاط الصعاليك بين هذه المناطق ، حتى ليوشك أن تكون لكل جماعة من جماعاتهم مناطق اختصاص يتركز فيها نشاطهم :

أما عروة بن الورد وصعاليكه ، أو « فتيانه » كما كانوا يسمون أحياناً[٤] ، فقد تركز نشاطهم الأساسى فى منطقة يثرب وما يجاورها من شمالى الجزيرة العربية . وفى شعره وأخباره أحاديث كثيرة عن غزواته لهذه المنطقة . فهو يعلن صعاليكه مرةً بأنهم لن يحققوا كل آماله ، ولن يبلغوا أقصى همته ، حتى يصلوا إلى يثرب منبت النخل فيغيروا عليها :

فإنكمُ لن تبلغوا كل همَّتى ولا أَرَبى حتى تروا منبتَ النخلِ[٥]

وفى أبيات أخرى يتوعد الأوس ، ويعلنهم بأنه سيترصد لهم بأحد الأودية حول يثرب :

---

(١) لسان العرب : مادة ( ركب ) ، ومادة ( ثمل ) — الركيب : المزرعة . والثميل : الحب .

(٢) ديوان الهذليين ٢/١٥٩ . ويروى فى لسان العرب : مادة ( قضب ) لعروة بن الورد ( انظر أيضاً ديوانه / ١٩٣ ) . والواضح أنه لأبى خراش فإن مرة هو أبوه — أوفى : أشرف . والحرف من الجبل : أعلاه المحدد ، ولعلها هنا تحريف صوابه « الحرث » بمعنى النبات ، بدليل « المقاضيب » بعدها ، وهى الأرض تنبت النبات الرطب ، جمع مقضبة أو مقضاب .

(٣) ابن حبيب : كتاب المغتالين ( مصورة ) لوحة رقم ٩٠ . وانظر أيضاً شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/١٩٢ .

(٤) انظر شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٨ .

(٥) المصدر السابق ٢/٨ ، ٩ .

فإلاَّ أنلْ أوساً فإنّيَ حسبها  بمنبطح الأدغال منْ ذى السَّلائل[١]

وفى أخباره أنه أغار على مزينة[٢] ، ومنازل مزينة « جبال رَضْوَى وقُدُس وآرة وما والاها وصاقبها من أرض الحجاز »[٣] « بين حرة بنى سُلَيم وبين المدينة »[٤] ، بل إننا لسنا فى حاجة إلى هذا التحديد ، فإن قصة الغارة صريحة فى أن مزينة كانوا يخالطون بنى النضير[٥] . وعروة نفسه يذكر فى شعره أنهم كانوا ينزلون « فويق بنى النضير »[٦] ، وبنو النضير كانوا بنواحى يثرب[٧] . وهذه المنطقة التى أغار عليها منطقة خصبة « فيها العيون والنخل والزيتون والبان والياسمين والعسل وضروب من الأشجار والنبات »[٨] . وفى أخباره أيضاً أنه كان ينزل بصعاليكه فى ماوان ، ويجعل منها « نقطة ارتكاز » لغزواته فى تلك المنطقة[٩] . وماوان واد فيه ماء بين النَّقِرة والربَذَة فى منطقة يثرب[١٠] ، وهو يتحدث فى بعض شعره عما كان يحدث له مع صعاليكه فى هذه المنطقة[١١] ، وفى أخباره أيضاً أنه خرج بصعاليكه « متياماً عن المدينة يريد أرض قضاعة ، وقصد بَلْقَين »[١٢] ، وأنه فى مرة أخرى خرج بهم غازياً « ومضى حتى انتهى

---

(١) الأغانى ٣/٧٥ . وذو السلائل : واد بين الفرع والمدينة ( ياقوت : معجم البلدان ٥/١٠٥ ) ، والفرع قرية غناء كبيرة بها نخل ومياه كثيرة ( المصدر السابق ٦/٣٦٣ ) .

(٢) الأغانى ٣/٧٥ .

(٣) البكرى : معجم ما استعجم ١/٨٨ .

(٤) المصدر السابق / ٩١ .

(٥) الأغانى ٣/٧٦ .

(٦) ديوانه / ٤٥ .

(٧) تاريخ ابن خلدون ٢/٨٢ .

(٨) البكرى : معجم ما استعجم ١/٣٧ .

(٩) الأغانى ٣/٧٩ ، ٨٥ ، وديوانه / ٩٧ ، وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٩ — سطر ١٨ .

(١٠) ياقوت : معجم البلدان ٧/٣٧٠ .

(١١) شرح ابن السكيت على ديوانه / ٩٧ وما بعدها. وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٧ ، ٩ .

(١٢) شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٨ سطر ١٢ ، ١٣ . وانظر أيضاً شرح ابن السكيت على ديوانه / ٩٦ .

إلى بلاد بنى القين فأغار عليها[١] » ، ومنازل بنى القين فى أرض التيه[٢] فى الشمال الغربى من جزيرة العرب[٣] ، وهو يعلن صعاليكه بأنه لن يستقر بهم حتى يروا « منبت الأثل »[٤] ، ومنبت الأثل بلاد بنى القين[٥] .

ومع ذلك فقد كان عروة يغير أحياناً على مناطق أخرى غير مناطق اختصاصه ، وهو يصرح فى شعره بأنه يغير أحياناً على نجد ، وأحياناً على تهامة :

فيوماً على نجد وغارات أهلها ويوماً بأرض ذات شث وعرعر[٦]

وفى أخباره أنه أغار مرة على منازل هذيل[٧] ، ومنازل هذيل فى جبال السراة[٨] جنوبى مكة[٩] ، ولكن يبدو أن هذا كان نادراً ، ولعله لم يكن يحدث إلا فى حالات خاصة ، فقصة غارته هذه لم تكن إلا لوناً من التسلية أراد به أن يظهر براعته وسعة حيلته ، وأن يبين للهذلى الذى أغار عليه مقدار غفلته ، حتى ليرد عليه ما غنمه منه ، لولا أن يأبى الهذلى ذلك إعجاباً به[١٠] .

أما منطقة جبال السراة فيما بين مكة والطائف ، وأول الطريق الصاعد إلى اليمن ، فلعلها المنطقة التى شهدت أكبر عدد من صعاليك العرب . ويذكر الأصمعى أن بالحجاز والسراة من هؤلاء العدائين الذين يعدون على أرجلهم ويختلسون أكثر من ثلاثين[١١] ، وأن بهذيل وحدها منهم أربعين[١٢] ، ومرد

---

(١) الأغانى ٣/٨٢ .
(٢) شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٨ سطر ١٨ ، ١٩ .
(٣) Ency. of Islam; art. 'Urwa b. Al-Ward.
(٤) شرح ابن السكيت على ديوانه / ١٠٦ .
(٥) شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٩ — السطر الأول .
(٦) ديوانه / ٨٤ .
(٧) الأغانى ٣/٨٣ .
(٨) البكرى : معجم ما استعجم ١/٨٨ .
(٩) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.
(١٠) انظر القصة فى الأغانى ٣/٨٣ — ٨٥ .
(١١) الأصمعى : فحولة الشعراء ( مخطوطة ) ورقة رقم ١٥ .
(١٢) المصدر السابق ، ورقة رقم ٢٢ .

ذلك عندى إلى أربعة عوامل :

فهذه المنطقة ، أولا ، منطقة يظهر فيها « التضاد الجغرافى » ظهوراً شديداً ، حتى ليعدها الجغرافيون من المناطق التى يختلط فيها الرعى بالزراعة[١] . ففيها من المناطق ما يصفه القرآن الكريم بأنه واد غير ذى زرع[٢] ، ويذكر بعض الدارسين أن ليس فيما يحيط بمكة من أرض ما يكفى لحياة سكانها[٣] ، وليس فى جميع جبال مكة — كما يذكر الجغرافيون — نبات إلا شىء يسير من الضهياء يكون فى الجبل الشامخ ، وليس فى شىء منها ماء[٤]، ولكن فى هذه المنطقة إلى جانب هذا مناطق شديدة الخصب ، وقد رأينا منها الطائف ، وتعد منطقة السراة جنوبى مكة أشد مناطق الحجاز خصباً[٥] ، تنمو بها أشجار الصمغ والصنوبر والسرو[٦] ، وقد قلنا إن ظاهرة التضاد الجغرافى تثير فى نفوس الفقراء إحساساً قوياً بالفقر يدفعهم إلى التمرد .

وهذه المنطقة ، ثانياً ، منطقة جبلية . وسكان المناطق الجبلية — فى العادة — أشداء مغامرون متكبرون ، أخذوا من الصخر شدته ، ومن التواء الدروب حب المغامرة ، ومن شموخ الجبال الكبرياء العنيدة التى ترفض الخضوع . ويقرر الدارسون للبيئات الجغرافية « أن سكان الجبال الذين لم

---

(١) انظر المصور الجغرافى فى كتاب :

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 487.

(٢) إبراهيم / ٣٧ .

(٣) Sédillot, Histoire Générale des Arabes, Tome I, p. 12.

(٤) ياقوت : معجم البلدان ٣/٢٤٠ — والضهياء : شجر كثير الشوك .

(٥) Ency. of Islam, art. Arabia, p. 368.

(٦) Lammens, Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 92.

وليس صحيحاً ما ذكره لامانس من أن جبالها تنبت الجوز بكثرة ، استناداً إلى أنها تسمى جبال الجوز ، كما أنه ليس صحيحاً ما ذكره من أن كل منطقة الحجاز تنبت الجوز استناداً إلى السبب نفسه . . . (Ibid., pp. 92, 93)

فالجوز هنا ليس المراد به تلك الثمرة المعروفة ، وإنما معناه الوسط ، فهى جبال الجوز لأنها تتوسط بين نجد وتهامة ، وكذلك القول فى الحجاز ، وليس هناك أى دليل على أن هذه المنطقة تنبت الجوز (انظر تاج العروس ، مادة جوز) .

يأخذوا بقسط وافر من الحضارة ، والذين لم تهيئهم أمزجتهم أو ظروفهم الاقتصادية الضيقة للهجرة ، يحلون مشكلة نقص موارد الطعام بالإغارة على حقول جيرانهم الأغنياء ومخازنهم ، حتى تملأ غارات النهب تاريخ سكان الجبال الفطريين »[١] ، ويذكرون أن سكان الجبال القدماء فى الألب وشمالى أسبانيا والبلقان وإيطاليا والمرتفعات المحيطة بالفراتين ، كلهم قطاع طرق ، يعيشون على النهب والسلب ، نظراً لجدب بيئتهم الطبيعية وما تسببه لهم من قلة موارد العيش وما يتبع ذلك من فقر وجوع[٢] .

وهكذا لم تكن القبائل العربية التى نزلت فى المناطق الجدبة من سلسلة جبال السراة بدعاً فى تاريخ العالم .

ثم إن هذه المنطقة ، ثالثاً ، بحكم طبيعتها الجبلية تيسر وسائل الهرب والاختفاء والنجاة لهؤلاء الصعاليك ، فما أيسر ما يجدون فى دروبها الملتوية ، وشعابها المتعرجة ، وطرقها الصاعدة الهابطة ، فرصاً طيبة تساعدهم على الهرب ، وما أكثر ما يجدون فى كهوفها المتعددة ، وثناياها الغامضة المحجبة ، وصخورها العالية المتناثرة ، أماكن صالحة للاختفاء .

فى أخبار تأبط شراً أنه أغار ومعه ابن براقة على بجيلة ، فلما خرجت فى آثارهما « مضيا هاربين فى جبال السراة ، وركبا الحزن »[٣] ، وفى أخبار مُرّة بن خُليف[٤] أنه غزا الأزد ، « فأسند فى جبل لهم منكر ، ليجد فرصة فيغير »[٥] .

ثم إن هذه المنطقة ، رابعاً ، تعرضت لظروف اقتصادية خاصة ، سنعرض لها عند تفسيرنا الاقتصادى لظاهرة الصعلكة .

وأشهر الصعاليك الذين انتشروا فى هذه المنطقة الجبلية صعاليك فهم وصعاليك هذيل ، ومن انضم إلى أولئك وهؤلاء من خلعاء القبائل وشذاذها .

---

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 586.

(٢) انظر تفصيل هذا فى المصدر السابق : الموضع نفسه .

(٣) الأغانى ١٨/٢١١ .

(٤) ينص الأغانى على أنه من صعاليك فهم (١٨/٢١٥) .

(٥) ابن حبيب : المحبر / ١٩٨ .

وقد قدمنا أن قبيلة هذيل كانت تنزل من تلك المنطقة الجبال جنوبيّ مكة ، وكان لهم صدور أوديتها وشعابها الغربية[١] التى تلى الرملة من تهامة[٢] ، وكانت تجاورهم فى جبالهم فَهْم[٣]، وكانت سراة فهم تجاور سَراة ثقيف[٤] التى تقع إلى جانب الطائف[٥] .

وقد اتجهت أكثر غزوات صعاليك هذه المنطقة إلى ديار بجيلة ، وهى إحدى القبائل التى عرفت بالضعف[٦] . ويبدو أن من أسباب هذا نزول بجيلة « فى حضرة الطائف »[٧] هذا الإقليم الشديد الخصب ، ومجاورتها سراة فهم نتيجة لذلك . ولهذا نلاحظ أن تأبط شرا الفهمى ، ورفاقه من صعاليك فهم ، ومن شذاذ القبائل الذين كانوا يصحبونه ، كانوا مفتونين بالإغارة على هذه المنطقة ، ففى أخباره أنه خرج فى عدة من فهم « حتى بيتوا العوْص ، وهم حى من بجيلة ، فقتلوا منهم نفراً ، وأخذوا لهم إبلا »[٨] ، وأنه أغار « ومعه ابن براق الفهمى على بجيلة فأطردا لهم نعماً »[٩] ، وأنه خرج ومعه صاحبان له « يريدون الغارة على بجيلة »[١٠]، و « أنه خرج غازياً يريد بجيلة هو ورجل معه » ، أو « هو وصاحبان له حتى أغاروا على العوص من بجيلة فأخذوا نعماً لهم »[١١] ، وفى أخبار صعاليك هذيل أنهم كانوا يغزون بجيلة أيضاً[١٢] .

وقد اتجهت غزوات صعاليك هذيل إلى منطقة مكة أيضاً ، بحكم قربهم

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم ١/٨٨ .
(٢) السيوطى : المزهر ٢/٣٠٠ .
(٣) البكرى : معجم ما استعجم ١/٨٨ .
(٤) المصدر السابق /١٥ .
(٥) المصدر نفسه /٦٧ .
(٦) W. Robertson Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 170. (F.N.)
(٧) البكرى : معجم ما استعجم ١/٩٠ .
(٨) الأغانى ١٨/٢١٥ .
(٩) المصدر السابق /٢١١ .
(١٠) المصدر نفسه /٢١٧ .
(١١) المصدر نفسه /٢١٣ .
(١٢) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٣ ، ٢٣٤ .

منها ، فى أخبار الأعلم الهذلى أنه خرج « هو وأخواه صخر وصُخَير حتى أصبحوا تحت جبل يقال له السِّطاع »[١]، وهو جبل بينه وبين مكة مرحلة ونصف من جهة اليمن[٢] ، وفى أخبار بعض الصعاليك الهذليين أنهم كانوا يغيرون على خزاعة[٣] ، وكانت خزاعة تقيم بمكة[٤] ، ولكن يبدو أن للمسألة جانباً آخر اقتصاديًّا سنحاول استجلاءه فى تفسيرنا الاقتصادى لظاهرة الصعلكة.

وقد كانت بين هذيل وفهم ثارات[٥] ، فكان صعاليك كل من القبيلتين يغيرون على الأخرى ، فيتربص بهم صعاليكها ، وهكذا . ويبدو أن سر المسألة يرجع إلى الصراع بين الطائفتين على أهداف واحدة ، وقد رأينا أن صعاليك هذيل كانوا يغيرون على بجيلة ، هدف صعاليك فهم الأول ، ويبدو أن كلا من الطائفتين كانت تريد أن تكون لها وحدها السيطرة المطلقة على هذه المنطقة الخصبة .

أما منطقة اليمن فقد عرفت أجزاؤها القريبة من الحجاز ، وبخاصة ديار خثعم ، صعاليك من فهم وصعاليك من الأزد ، فى أخبار تأبط شرًّا أنه « أغار على خثعم »[٦] ، وفى أخبار حاجز الأزدى أنه جمع « ناساً من فهم وعَدْوان ، فدلهم على خثعم ، فأصابوهم غرة وغنموا ما شاءوا[٧] »، وكانت خثعم تنزل تُرْبةَ وبيشةَ وظهرَ تَبَالة على محجة اليمن من مكة إليها[٨]، وهى منطقة خصبة « بها من النخل والفسيل شىء كثير »[٩] ، وبعض أوديتها ،

---

(١) الأغانى ٢٠/٢٠ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ٥/٨١ .
(٣) السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/١٦١ ، وديوان الهذليين ٢/١٤٢ .
(٤) تاريخ ابن خلدون ٢/٧١ .
(٥) انظر أمثلة على هذه العداوات فى السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ .
(٦) الأغانى ١٨/٢١٦ ، ٢١٧ .
(٧) الأغانى ١٢/٥١ ( بولاق ) .
(٨) البكرى : معجم ما استعجم ١/٩٠ وأيضاً / ٦٣ .
(٩) ياقوت : معجم البلدان ٢/٣٣٤ .

وبخاصة وادى بيشة ، ينتمى إلى أطيب مناطق بلاد العرب ، وأكثرها خصباً[١] ، ويصف ياقوت بيشة بأنها « قرية غناء فى واد كثير الأهل من بلاد اليمن »[٢] .

وكذلك تعرضت سراة الأزد لبعض الغزوات ، فقد كان الشنفرى يغير من ديار فهم على الأزد فيمن معه من فهم أحياناً ، ووحده أكثر الأحيان[٣] ، وفى أخبار مُرة بن خليف « أنه غزا الأزد»[٤] . ويبدو أن من أسباب ذلك أن سراة الأزد كانت تجاور سراة فهم ، فسراة الأزد تتلو سراة فهم من ناحية اليمن[٥] ، وإن تكن بينهما طائفة من السروات تنزلها قبائل أخرى[٦] ، ولكن الأزد كانوا ينزلون منطقة خصبة ، فقد كانت منازلهم « أودية مستقبلة مطلع الشمس بتثليثَ وتَرْبةَ وبيشة»[٧] وهى المنطقة التى كانت تنزل فيها خثعم ، فقد كانت خثعم تنزل أوساط هذه الأودية[٨]

أما مناطق اليمن البعيدة فقد تخصص فى الإغارة عليها السليك ، وقد مر بنا أن عمرو بن معد يكرب وصفه بأنه بعيد الغارة ، وفى أخباره أنه كان « يتجاوز بلاد خثعم إلى من وراءهم من أهل اليمن فيغير عليهم»[٩] ، وفيها أنه كان « يغير على اليمن»[١٠] ، وفيها أنه انطلق مع رجلين ليغيروا « فأتوا جوف مراد »[١١]، وجوف مراد فى أرض سبأ[١٢].

ومع ذلك فقد كان تأبط شرا يتعدى على اختصاص السليك فيغير على

---

(١) Ency. of Islam; Art. 'Asir, p. 487.
(٢) ياقوت : معجم البلدان ٢/٣٣٤ .
(٣) الأغانى ٢١/١٣٥ .
(٤) ابن حبيب : المحبر/١٩٨ .
(٥) الهمدانى : صفة جزيرة العرب١/١٢١.
(٦) المصدر السابق /١١٩ .
(٧) البكرى : معجم ما استعجم ١/٩٠ .
(٨) المصدر السابق /٩٠ .
(٩) الأغانى ١٨/١٣٧ ، ١٣٨
(١٠) المصدر السابق /١٣٤ .
(١١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /٢١٥ .
(١٢) ياقوت : معجم البلدان ٣/١٧٥ .

هذه المنطقة أحياناً ، ففى أخباره أنه خرج يوماً « يريد الغارة فلقى سرْحاً لمراد فأطرده ، ونظرت به مراد ، فخرجوا فى طلبه فسبقهم إلى قومه »[١] .

وكان السليك يعد العدة لتلك الغارات البعيدة التى يضطر معها إلى اختراق المفازة المهلكة التى توصل إلى اليمن ، فكان ، أولا ، لا يغير إلا فى الصيف حينما تنقطع إغارة الخيل[٢] ، فيضمن بهذا عدم تعرضه لمطاردات الخيل البعيدة المدى ، وهو لا يملك إلا قدميه يعدو بهما ، ثم كان ، ثانياً ، يدبر « موارد تمويته » فى طريق غزواته الجدب ، فكان « فى الربيع يعمد إلى بيض النعام ، فيملؤه من الماء ، ويدفنه فى طريق اليمن فى المفاوز ، فإذا غزا فى الصيف مر به فاستأثره »[٣] ، وكان يعتمد فى هذا على خبرته الواسعة بمجاهل الصحراء ، فقد كان ــ كما يصفه الرواة ــ « أدل من قطاة ، يجئ حتى يقف على البيضة »[٤] .

والشىء الذى يلفت النظر فى صعاليك هاتين المنطقتين الأخيرتين : منطقة السراة الممتدة من مكة حتى أول الطريق الصاعد إلى اليمن ، ومنطقة السراة الممتدة بعد ذلك حتى اليمن ، هو أن أكثرهم ــ إن لم يكونوا جميعاً ــ من العدائين الرَّجليين الذين يعدون على أرجلهم ، فيسبقون الخيل ، وقد رأينا أن المثل فى سرعة العدو يضرب باثنين منهم هما السليك والشنفرى ، وأن الأصمعى يذكر أن فى هذيل وحدها أربعين من هؤلاء العدائين ، ويذكر السكرى « أن هذيلا ليسوا بأصحاب دواب ، وإنما هم رَجَّالة »[٥] ، وديوان الهذليين ناطق بكثرة عدد هؤلاء العدائين الذين كانوا يعتمدون على العدو فى غاراتهم وفى فرارهم ، وتشهد بهذا أيضاً حماسة البحترى[٦] .

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٦ .
(٢) المصدر السابق /١٣٣ ، ١٣٤ .
(٣) المصدر السابق /١٣٥ .
(٤) المصدر السابق /١٣٤ .
(٥) ديوان الهذليين ٢/٧٦ .
(٦) انظر الباب الخامس والعشرين « فيما قيل فى الفرار على الأرجل » /٦٣ ــ ٦٩ .

ومرد ذلك ، عندى ، إلى أمرين :

أولهما : طبيعة المنطقة الجغرافية ، فهى منطقة جبلية تمتد على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، « مقبلة من قُعْرة اليمن حتى تبلغ أطراف بوادى الشأم »[١] « فى عرض أربعة أيام فى جميع طول السراة ، يزيد كسرَ يوم فى بعض هذه المواضع ، وقد ينقص مثله فى بعضها »[٢] ، وترتفع بعض ذراها إلى خمسمائة وألفين من الأمتار[٣] . وفى الجبال تشتد عضلات الأرجل إلى درجة غير عادية نتيجة لطبيعة الأرض ، وما تستلزمه من صعود وهبوط دائمين ، ويقرر الدارسون « أن الطبيعة تمنح سكان الجبال عضلات فى سيقانهم من حديد ليتسلقوا بها المرتفعات »[٤] .

والآخر : أن هذه المنطقة الجبلية المجدبة ليست بالمنطقة الصالحة لتربية الخيل ، لأن الخيل لا تُربَّى إلا فى البقاع الخصبة[٥] ، ومن هنا اعتمد هؤلاء الصعاليك على أقدامهم فى كل تحركاتهم .

ولهذا السبب أيضاً نلاحظ أن عروة وصعاليكه ممن كانوا يغيرون على منطقة نجد وشمالى الجزيرة العربية لم يذكر عنهم أنهم كانوا من العدائين أو الرجليين ، وإنما كانوا يستخدمون الخيل أحياناً[٦] ، وذلك لأن هذه المناطق مناطق خصبة تصلح لتربية الخيل ، وهم يذكرون أن « فى نجد وحدها أعز الخيول العربية وأرشقها »[٧] .

والواقع أن هذه الظاهرة ، ظاهرة شدة العدو الخارقة للعادة ليست بالأمر المستحيل الذى يأباه واقع الحياة ، فإننا نجد فى حياتنا الواقعية التى تحيط بنا

---

(١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ١/٤٨ .
(٢) المصدر السابق ١/٦٧ .
(٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب /٥١ .
(٤) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 1.
(٥) جوستاف لوبون : حضارة العرب /٥٥ .
(٦) انظر ديوان عروة /٦٨ ، ٦٩ ، ١١١ .
(٧) جوستاف لوبون : حضارة العرب /٥٥ .

ما يؤيد ما حملته إلينا مصادر الأدب العربى القديم من أخبار تلك النسعة التى عرف بها صعاليك السراة .

ومرد المسألة فى جميع هذه الحالات إلى تكيُّف الإنسان عضْوياً مع البيئة الطبيعية التى يعيش فيها ، والحياة التى يحياها بينها .